مقدمة

عندما كنت تلميذًا فى نهاية الثلاثينات فى مدرسة الليسيه بالقاهرة، كان أستاذى الذى يعلمنى اللغة العربية الكاتب المشهور زكى مبارك. وقد فاجأنى فى أحد الأيام، وبعد انتهاء الدرس، عندما وجه إلىّ سؤالاً حول ما إذا كنت قد قرأت كتاب «الكافى» الذى وضعه جدى ميخائيل شاروبيم. وقد ادعيت، فى إجابتى على استفساره، بأننى قد حاولت قراءة الكتاب، ولكن سرعان ما عزفت عن الاستمرار فى قراءته، لأن كتب التاريخ لا تغرينى. وأدرك زكى مبارك أننى لم أقرأ كتاب «الكافى»، وقال لى اطلب من والدتك أن تقدم لى الأجزاء الأربعة التى طبعت من الكتاب حتى أقرأها مرة أخرى، ما دمت لم تستطع أن تقرأها أنت. ثم استرسل قائلاً إن هناك جزءًا خامسًا من الكتاب لم يطبع بعد، ويجب أن تهتم الأسرة بنشر هذا الجزء لأنه يتناول فترة هامة من تاريخ مصر فى مطلع هذا القرن، لم يكتب عنها الكثير، وأن هذا الجزء الخامس هو أهم أجزاء الكتاب جميعًا.

وفى الحقيقة، لم أكن أعرف أن هناك جزءًا خامسًا من كتاب «الكافى» لم يطبع بعد، كما أننى لم أعرف أن تلك المهمة ستقع على عاتقى فى يوم من الأيام.

ومرت الأيام، وعندما عدت من باريس فى أكتوبر ١٩٤٩ بعد حصولى على درجة الدكتوراه، وعينت مدرسًا للعلوم السياسية بجامعة القاهرة، سلمتنى والدتى السيدة صفية ميخائيل شاروبيم مؤلفات والدها التى لم تنشر

بعد، وقالت لى بالحرف الواحد «أصبحت أستاذًا فى الجامعة وكانت أمنيتى أن تعمل فى الحقل الثقافى، وسيقع على عاتقك مسئوليات جسام، ليس فقط بصفتك أستاذًا جامعيًّا بل بصفتك حفيد ميخائيل شاروبيم، وأننى أعهد إليك بمهمة نشر مؤلفاته التى لم تطبع بعد وهما مخطوطان، أولهما الجزء الخامس من «الكافى» وثانيهما كتاب «الرقيب»، وهما الكتابان اللذان لم يجدا طريقهما إلى النشر، على الرغم من مرور أربعين سنة على كتابتهما، وأملى أن تحقق أمنيتى الثانية، كما حققت أمنيتى الأولى».

وكرت الأيام والسنون، وكانت والدتى (يرحمها الله) تذكرنى من وقت لآخر بنشر مؤلفات جدى، بينما كنت مهتمًّا حينئذ بنشر الملازم الجامعية لطلبتى الذين أقوم بالتدريس لهم، واعتذرت لوالدتى بأن مؤلفات جدى هى مؤلفات تاريخية، وهى تتطلب أستاذًا فى التاريخ ليتولى تحقيقها وتصحيحها وضبط تواريخها. وقد حاولت فعلاً أن أجند بعض المعيدين فى تلك المهمة الصعبة، ولكنى لم أوفق.

وانقضت سنوات وسنوات حتى توفيت والدتى دون أن أنشر مؤلفات والدها، وزاد شعورى بالذنب والتقصير كلما تراكمت السنوات دون تحقيق الأمنية التى طالما راودت أمى.

وذات يوم، كنت أتحدث مع الأستاذ المؤرخ الدكتور يونان لبيب رزق، الذى لعب دورًا جوهريًّا فى قضية «طابا» وجاء ذكر كتاب «الكافى» لميخائيل شاروبيم، وعرضت عليه أن يتولى تلك المهمة الدقيقة التى طالما تأخرت فى أدائها، فوافق مشكورًا، بل تحمس للمشروع، واتفقنا على أن ننشر كتاب الرقيب كخطوة أولى، ثم ننشر بعد ذلك الجزء الخامس والأخير من كتاب «الكافى»، كما فكرنا كذلك فى وجوب إعادة نشر الأجزاء الأربعة الأولى التى نفدت منذ عهد بعيد.

وقد طلب منى أن أكتب مقدمة لهذا الكتاب الذى قام بتحقيقه، ولما كنت من غير المتخصصين فى التاريخ، حتى أقدم لمؤرخ يكتب ويحقق ويعلق على كتاب مؤرخ آخر، رأيت أن خير مقدمة أكتبها، إنما تتمثل فيما يمكن أن أحكيه للقارئ حول قضية المسئولية والتقصير فى نشر هذا الكتاب، وفى أن أسجل شكرى وعرفانى للدكتور يونان لبيب رزق، مرتين، الأولى لأنه أتاح لأمنية والدتى أن تتحقق، والثانية لأنه مكننى من الوفاء بما أخذته على عاتقى من مسئولية.

بطرس بطرس غالى

obeikandl.com